موقف الفكر العربي من الاستشراق

دكتور/ محمد الجبر*

مقدمة:

كثرت الدراسات الاستشراقية في القرن الماضي، فظهر لكثير من المفكرين العرب والمسلمين دراسات وكتابات متعددة ومختلفة، ولكن أكثرها دراسات فردية بحتة لم يجمع الرأي فيها في مؤتمر علمي منظم لنعرف صائب الآراء وأثر الاستشراق ونفعه وضرره، وظل مفهوم الاستشراق غير واضح المعالم لديهم، فمنهم من ينظر إليها نظرة إعجاب تصل أحياناً إلى الانبهار، ومنهم من يرفض كل ما يأتي عن هذا المفهوم حتى ولو اصطبغ بصبغة علمية، والآخر المتأمل فلم ينبهر ولم يرفض، وأخضع نتاج هذا المفهوم لأحكام علمية خالصة، وليس هناك تحديد واضح لمفهوم الاستشراق بحيث يمكن معه إطلاق هذا المصطلح على ظاهرة بعينها، وليس هناك تحديد واضح ودقيق لنشأة الاستشراق، بحيث يستطيع الباحث أو المطلع في هذا المجال أن يحدد تاريخاً بعينه، ولم تكن لمفهوم الاستشراق دوافع واضحة متميزة، فجاءت الدوافع في الأدبيات العربية متداخلة بعضها مع بعض، كما أنه لم يكن هناك وضوح في تحديد الأهداف، بل هناك خلط أحياناً بين الدوافع والأهداف.

وسنحاول تحديد مفهوم الاستشراق لأن فيه كثيراً من الالتباس المؤدي إلى الاختلاف ناتج عن الخلاف في دلالات المصطلح، وأن المسألة لا تنحصر في حدود فقه اللغة، بل تتجاوز إلى أبعاد سياسية وثقافية وأيديولوجية[1].

فما المقصود إذن بالاستشراق؟

الاستشراق هو: "مصطلح أو مفهوم عام يطلق عادة على اتجاه فكري يُعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة"[2]، ويذهب

---

* كلية الآداب ـ قسم الفلسفة ـ جامعة دمشق ـ سوريا.

"عمر فروخ" إلى أن الاستشراق هو اهتمام علماء الغرب بعلوم المسلمين وتاريخهم ولغاتهم وآدابهم وعلومهم وعاداتهم ومعتقداتهم وأساطيرهم[٣].

أمـــا المدلول اللغوي: كلمة "الاستشراق" مشتقة من المشرق، وبالتدقيق الشرق العربي الإســـلامي، ويعرّفه القاموس الفرنسي بأنه مجموعة المعارف التي تتعلق بالشعوب الشرقية ولغاتهم وتاريخهم وحضارتهم . وفي انجاز يعني عندهم تذوق أشياء الشرق[٤].

نشأة الاستشراق

اختلفـــت الآراء حـــول بدايـــة الاستشـــراق، فليس هناك تحديد واضح ودقيق لنشأة الاستشراق، بحيث يستطيع الباحث في هذا المجال أن يحدد تاريخاً بعينه، تكون فيه المنطلقات الأولى لاهتمام الاستشراق بعلوم الأمم الأخرى وثقافاتها وعقائدها وآدابها وعاداتها وتقاليدها التي كانت تغطـــي "الشرق" وقد تعددت الآراء حول البدايات الأولى للاستشراق إلى أحد عشر رأياً بعضها يعطـــي تاريخاً بعينه، وبعضها الآخر يعطي حقبة أو عصراً من العصور التي مر بها الشرق أو العالم، والبعض الثالث لا يعطي زمناً، وإنما يعتمد على حوادث أو غايات أراد الاستشراق الوصول إليها، فجُعلت هي البدايات[٥].

فبينما يعزو بعضهم نشأة الاستشراق إلى صدر الإسلام بسبب احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤتة وغزوة تبوك، ومن يومها وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية.

ويذهـــب فريق آخر إلا أنّ الباعث على نشوئه هو الحروب الصليبية التي كانت نتيجة الاشـــتباك السياسي والديني بين الإسلام والنصرانية الغربية في فلسطين، وهناك من يرى أنّ فكرة الاستشـــراق يمكن أن تكون قد بدأت مع الحروب الدموية التي نشبت بين المسلمين والنصارى في الأندلـــس، وبـــالأخص إثـــر سقوط طليطلة عام ٤٣٣هـــ/١٠٨٥م. والاستيلاء عليها من قبل النصارى[٦].

ورأي آخر ينظر إلى نشأة الاستشراق وارتباطها المباشر والجدي بفترة ما يسمونه بالإصلاح الديني في القرن السادس عشر الميلادي، وهو عصر بداية الهجوم على العالم العربي والإسلامي،فكان أوّل عالم غربي برز في العمل الاستشراقي هو المستشرق"وليم باستيل"(١٥١٠هـــ/ ١٥٣١م) الذي كان مخلصاً للكنيسة كل الإخلاص[٧].

أمـــا الذيـــن يحاولون تحديد نشأة الاستشراق تحديداً علمياً على حدث علمي، فيعودون بنشأة الاستشراق إلى سنة (١٧١٢هـــ/ ١٣١٢م) حينما عقد مؤتمر فيينا الكنسي ونادى بإنشاد كراســـي في اللغات العربية، والعبرية، واليونانية، والسريانية في الجامعات الأربع الرئيسة في أوربا وهي باريس، وإكسفورد، وبولونيا، وسلامنكا، ثم في جامعة خامسة في البلاط البابوي. وقد رأى هذا الرأي كثير من الذين كتبوا عن نشأة الاستشراق، أمثال: إدوارد سعيد[٨].

لـــذا فقـــد أثبتت الدراسات الحديثة، أن الحروب الصليبية التي خاضتها دول أوربا، في عصـــورها المظـــلمة لم تكـــن لاحـــتلال مدينة القدس، لأن العداوة بين الشرق والغرب سياسية واستعمارية، ودليلنا خطبة البابا الشهيرة أربان الثاني، الذي حرّض فيها ملوك أوربة على غزو بلاد الشرق للقضاء على أتباع محمد وذبح أنصاره، الذين يفرضون سلطانهم –دائماً حسب قول البابا– على بيت المقدس، أرض المسيح..[٩]، وكلمة اللورد اللنبي الذي كشف فيها بعد أن استولى على القدس في الحرب العالمية الأولى، عن عدم انتهاء هذه الحرب الاستعمارية، عندما قال: (الآن انتهت الحـــروب الصـــليبية)، وكذلك تسمية وزير خارجية بريطانية لويد جورج هذه الحرب بالحروب الصـــليبية الثامنة والأخيرة[١٠]. كل ذلك يثبت استمرارية هذه الحرب التي أخذت طريقة جديدة مـــنذ أن تداعـــى رجال السياسة الأوربية لوضع خطة تلائم المرحلة الجديدة، وتكفل لهم احتلال القدس، وإعادة الأراضي الإسلامية إلى السيطرة الأوربية، وقد تبلورت الخطة الجديدة باستخدام حـــركات التبشـــير والاستشـــراق بدلاً من الحروب المسلحة، لغايات سياسية ضاعفت من حقد الأوربـــيين وتعصـــبهم، وكان المستشرق الأسباني "ريمون رول" الذي تعلم العربية وجال في بلاد المسلمين، وناقش علماءها، أول من استخدم هذا السلاح الجديد، ونادى بإيجاد كرسي للدراسات الشرقية والإسلامية في جامعات أوربة، وذلك للأسباب الثلاثة التالية:–

١) إيجاد دراسات تاريخية ودينية تشوه الإسلام، وتحط من تعاليمه وقيمه.

٢) إدخال مفاهيم الغرب العصرية –العلمية والمادية– للطلاب الموفدين من البلاد الشرقية.

٣) القضاء على قوة العرب والمسلمين، والسيطرة على بلادهم.

وهكـــذا تســـلل المستشرقون والمبشرون معاً إلى بلاد العرب والإسلام، وأخذوا ينفثون سمومهم، ويحيكون مؤامراتهم مستخدمين المدارس الرهبانية، والمعاهد التبشيرية التي فشلت الدولة العثمانية في إغلاقها، بسبب ضعف دولها الأوربية[١١].

لقـد أسـاء المبشـرون استخدام الروح الدينية السمحاء، كما أساء بعض المستشرقين استعمال العلوم، عندما حولوها لمصالح دولهم السياسية، وجعلوا الغرب في مواجهة عسكرية مع الشـرق، الذي مدهم بمختلف أنواع العلوم والمعارف الإنسانية، ولهذا نحن نتقبل بارتياح مفهوم الاستشراق عندما يقوم على معرفة الأوربيين لغات الشرق، وأديانها السماوية، ويطلع على علومه وثقافـته المتنوعة، انطلاقاً من حاجة الإنسان للتعاون مع أخيه الإنسان للتغلب على الصعاب التي تعرقل تقدمه وتطوره، أما الذي لا نستسيغه ولا نقره، فهو تحول عملية التبادل المعرفي والثقافي بين الأمـم والشعوب إلى منفعة سياسية، يراد منها التحكم والسيطرة، وهذا ما حدث مثلاً لأوروبا، التي اتصلت بالشرق، إبان الحروب الصليبية عبر بلاد الأندلس، وأخذت عنه علومه المتنوعة بعد أن درس أبناءه في الأندلس وتعلموا في مدارسها وجامعاتها، وخاصة في جامعة طليطلة، التي بقيت لغتها العربية –الثقافية والفكرية– قبل لطلاب العلم لمدة طويلة، وظلت الفلسفة الإسلامية وبقية العلوم العربية تدرس في أوروبا لقرون عدة، علماً بأن كتابات أرسطو لم تكن تفهم إلا بشروح ابن رشد، وفي الطب ابن سينا، كان أمثولة لكل مشتغل بالطب، في حين كانت أوروبا تعيش في ظلام قـاتل، يقول المستشرق الهولندي "رينهرت دوزي" (١٨٢٠– ١٨٨٣)، الذي اشتهر بدراسته المتنوعة عن تاريخ العرب الحضاري في أسبانيا،(إنه لم يكن في كل الأندلس أمي، يوم لم يكن في كل أوروبا من يعرف القراءة والكتابة، إلا في الطبقة العليا من القساوسة)[١٢].وهذا ما عبّر عنه "روجيه جـارودي" حين تحدث على لسان أحد المؤرخين متسائلاً، عن أسوأ يوم عرفته فرنسا، فأجاب بلا تـردد "هـو عـام ٧٣٢م تـاريخ معركة "بواتيه" حيث تراجعت الحضارة العربية أمام البربرية الإفرنجية"[١٣].

وهكذا يتبين أن كثيراً من رجال الاستشراق بعد أن نقلوا حضارة العرب ومعارفهم إلى لغاتهم، أساءوا إلى اللغة العربية وقذفوا تاريخها بأبشع النعوت.

ونـرى أن معظـم القضـايا الهدامة، والأخطار التي بمعظمها ابتليت بها المنطقة العربية والشـرقية –الدينية والاجتماعية والسياسية– هي بمعظمها من صنع هؤلاء المستشرقين، الذين لا يتمـيزون بشـيء عـن المبشـرين. وهذا ما أوضحه "مصطفى السباعي" بعد لقاءاته لعدد من المستشـرقين في دنى الاغتراب، في حديثه الذي أشار فيه إلى: "أن المستشرقين في جمهورهم لا يخلو أحدهـم مـن أن يكـون قسيـساً أو استعمارياً أو يهودياً، وأن الاستشراق ينبعث من الدول

الاستعمارية[١٤]. والحال أن مؤامرة الغرب على البلاد العثمانية، لم تهدأ وبخاصة بعد أن أدخل السلطان العثماني محمود الثاني (١٧٨٤- ١٨٣٩) إصلاحات الغرب إلى الدولة والجيش، واستعان بالمناهج التربوية الغربية والتنظيمات الإدارية والعسكرية، وأخذت القوى التغريبية التي تربت في أحضان الغرب، وتبنت تعاليمه، ترفع شعارات الثورة الفرنسية، وأوْرَبة البلاد من جهة، وتهجم على المقدسات العربية والإسلامية من جهة أخرى، زاعمة أن هذه المنطقة ستبقى بعيدة عن التقدم وغريبة عن روح العصر.

لقد عمل عدد من المستشرقين في تحوير مضامين الإسلام، وتشويه مبادئه السماوية، فالمستشرق الإنكليزي "هاملتون جب" (١٨٩٥- ١٩٧١) -أحد أكبر المستشرقين المتزمتين- والذي عرف بكتاباته العربية الأدبية، والتاريخية، كان يعتقد أن اتحاد المسلمين هو بمثابة لعنة على العالم، أما إذا بقوا مشتتين فلا وزن لهم ولا تأثير، ويليه "أرنولد توينبي" الذي يفصل عنجهية بلاده الاستعمارية حذر أيضاً من تأثير وحدة المسلمين على الغرب، التي كانت بعبع المستعمرين[١٥]، وإن كان في مجال آخر قد اعترف بتسامح المسلمين مع الطوائف الأخرى، وبأن الإسلام اكثر الأديان اتفاقاً مع المنطق، وهذا يفسر موقف الدول الكبرى المتناقض، فعلى حين يرفعون في داخل بلادهم الشعارات العلمانية والملحدة، نراهم في الخارج يؤيدون الدعوة الدينية ويشجعون المنادين بها، فأمريكا التي تعبد الذهب والبترول، قد غطت المنطقة بمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية وسلام ديني[١٦]، وفرنسا التي كانت تعادي في بلادها الحركة الدينية، نجدها في الخارج تؤازرها، أما إيطاليا التي ناصبت الكنيسة العداء، وحجزت البابا في الفاتيكان، فقد بنت سياستها على التوسع والاحتلال.

وهكذا استطاعت المؤسسات الغربية -المحافل الماسونية مثلاً- أن تزرع الأفكار المشبوهة، وتغزو بعض العقليات الشابة، فباسم المعاصرة أخرج المسلمون من ذاتيتهم، وباسم التحرر من العادات القديمة إنهم المصلحون بنعوت الرجعية والجمود والتخلف. وهذا ما يوضح موقف فولتير العدائي من الإسلام[١٧]. والغريب في الأمر أن البابا "برنو الرابع عشر" لم يتردد في مباركة "فولتير" -المعروف بعدائه للكنيسة- عندما أصدر مسرحيته محمد، وتهجم فيها على الإسلام وتاريخه[١٨].

الاستشراق ووسائله:-

اتسعت مجالات الاستشراق، وأخذت تشهد انعقاد المؤتمرات الدولية، وقد احتضنت فرنسا أولها عام ١٨٧٣م، وصارت بذلك باريس عاصمة الاستشراق وأخضع الاستشراق للإمبريالية والعرقية والماركسية وغيرها، غير أنه أصبح يملك منطلقات للبحث وجمعيات علمية ومؤسسات خاصة، نمت عدد كراسي الأستاذية في الدراسات الشرقية عبر عدد من دول الغرب، مما أتاح مجالاً واسعاً لنشر الدراسات الأكاديمية[١٩]، وهذا الميدان من أبرز الميادين التي يعتمد عليها المستشرقون في الوصول إلى أغراضهم، لأنه الميدان الذي يستطيعون منه توجيه الباحثين وإخضاعهم للمنهج الاستشراقي، سواء أكانوا غربيين أم شرقيين من طالبي الشهادات العليا من العرب والمسلمين... وفي هذا المجال استطاع المستشرقون بدءاً من القرن التاسع عشر، وضع الفكر العربي الإسلامي تحت المجهر لقولبته من جديد، وتكييفه وفقاً للأهداف الاستشراقية المسبقة، وإلى جانب هذا الميدان الأساس، امتد نشاط المستشرقين إلى مجال المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية سواء في داخل أوربا أم في داخل الوطن العربي والإسلامي نفسه، ومن الميادين التي اعتمدوا عليها كذلك تأليف الكتب، وإصدار الموسوعات العلمية كما اعتمدوا على إصدار المجلات العلمية اعتماداً كبيراً، ومن أبرز المجلات التي أصدروها "المجلة الأسبوعية"، "ومجلة الدراسات الشرقية"، "ومجلة شئون الشرق الأوسط"، "ومجلة العالم الإسلامي الأمريكية"، "والمجلة الفرنسية المسماة بالاسم نفسه وسواها.

وأما الموضوعات التي تناولتها هذه الدراسات فإنها قد بدأت بدراسة اللغة العربية والإسلام، ثم توسعت إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وجغرافيته وتقاليده وأشهر لغاته ولكن أهم ما اعتنوا به هو الدراسات الخاصة بالإسلام والآداب العربية والحضارة العربية والإسلامية.

وبهذا السياق نستطيع القول بان الحروب الصليبية تركت آثاراً سلبية على البلاد الأوربية، وخلفت نزعات تعصبية، طبعت الحركات الاستشراقية، على الخصوص بطابع الحقد والاستعداء الإسلام وبلاده الشرقية، الأمر الذي حدا بعض المؤرخين، أن يعيد سبب نشأة الاستشراق إلى الناحية الدينية والسياسية، في القرن الثالث عشر الميلادي عندما قصد بعض الرهبان بلاد الأندلس، وترجموا القرآن وكثيراً من الكتب العربية -العلمية والفلسفية- إلى اللغة

اللاتينية، وقد انتشر الاستشراق، وذاع أمره بعد حركة الإصلاح الديني التي بحكم شروحها الدينية الجديدة اتجهت إلى الكتب العبرانية، ومنها إلى الدراسات العربية والإسلامية حيث تلاقى التبشير والاستشراق في غاية واحدة، وكوّنا أقنوماً واحداً فإذا كانت الرغبة الدينية المسحية اعتمدت طريقة التبشير للوصول إلى المسلمين وجذبهم إلى معتقدها، فإن حركة الاستشراق ومعها كثير من المبشرين، أحدثت تغييرات في التصورات الذهنية والعقلية، واستطاعت أن تؤثر في الأنشطة السياسية والقضايا الأيديولوجية.

ونحن في حديثنا عن أسباب الاستشراق التي أوجزنا دوافعه بنزعة التعصب الديني والاستعلاء السياسي، نعترف بأن نفراً من المبشرين والمستشرقين على السواء كانت لهم دوافع شخصية -سياحة وأسفار ومغامرات- ممن هيأ لهم المال والفراغ، أو حوافز ثقافية، ممن أغوتهم فكرة الإطلاع على حياة الآخرين، والتعرف على أحوالها الدينية والتاريخية والحضارية.. لكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا على درجة واحدة من الإخلاص في أبحاثهم المتنوعة.. على الرغم من أن معظمهم ادعى حب العلم ومنهجه العقلي، تقصياً وراء الكشوف العلمية المجردة، والحقائق التاريخية والحضارية الثابتة، إلا أن مؤلفاتهم على اختلافها، ومقالاتهم المتنوعة، أتت متناقضة مع مزاعمهم الواهية، ومتوافقة مع أهوائهم الشخصية، وذلك لسبب أساسي هو أن هؤلاء قد سخروا العلم لمخططات دولهم السياسية والفكرية وأغراضها المشبوهة.

ونستطيع أن نصنف الفرق الاستشراقية وطوائفها فئتين:-

الأولى: طائفة أخلصت للدين وللحقائق العلمية والتاريخية، من دون زيغ أو هوى، وهي على الرغم من قلة عدد عناصرها وضآلة كتاباتها، استطاعت أن تصنف شخصيات تاريخية بارزة، وتنزه الدين الإسلامي وتاريخه على الخصوص من الافتراءات المردودة والمغالطات الضعيفة التي قصد منها تثبيط الهمم عند المؤيدين، وإضعاف معتقداتهم، وكان على رأس هذه المجموعة المستشرق "ليوبولد فايس" المعروف باسم "محمد أسد" الذي انصف الإسلام ورسوله، وكتب بموضوعية عن منهجية الحكم الإسلامي ونظامه الذي هدف إلى إقامة الدولة الدستورية المقيدة، التي تحمي المواطن وتصون الكرامة، وتؤمن بالعدل والمساواة.

وكذلك المستشرق والمبشر "إبراهيم خليل أحمد" الذي أكد بعد أن هداه الله إلى الإسلام، أن التبشير والاستشراق دعامتان من دعائم الاستعمار، وأنهما تقاسما الأعمال المقررة لغزو البلاد الإسلامية.

الثانية: طائفة تعمدت الدس والتشويه، وتقصت الهنات والهفوات، التي عرفتها المجتمعات الإسلامية في مختلف المراحل، فضخامتها محاولة أن تجعل من التفاصيل والجزئيات، قضايا عامة، ملحقة أخطاء بعض الحكام المسلمين بالدين نفسه بغية إضعاف مواطن القوة، واغتنام أماكن الضعف.

أما عن وسائل المستشرقين والطرق المتبعة فتؤكد أكثر المصادر المتخصصة أن "هؤلاء لجأوا إلى مختلف وسائل الإعلام والدعاية، ولم يتركوا منفذاً، يؤمن مصلحة دولهم السياسية إلا واستفادوا منه سواء عن طريق التأليف والنشر، أو عن طريق الجمعيات التبشيرية والمدارس والجامعات التعليمية والعلمية، وإقامة المؤتمرات التي تجدّف من جهة القرآن ورسوله، وتثني من جهة أخرى على مؤلفات المستشرقين وأعمالهم الإنسانية".

فعلى صعيد التعليم يقول رئيس الجامعة الأمريكية سابقاً المستر "ستيفن بنروز": "برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها في سعيهم لتنصير سوريا ولبنان[٢٠]، وضرب المجتمعات العربية والإسلامية، وتفتيت مرتكزاتها الدينية والسياسية والاقتصادية، وهذا ما صرّح به أيضاً رئيس وزراء بريطانيا "هارولد ويلسون، في حديثه عن مصر التي عانت كثيراً من سياسة التعليم، وبخاصة بعد أول وفد إليها في ظل الاحتلال البريطاني المستشرق الإنكليزي "دنلوب"، الذي أطلقت يده في السياسة التعليمية.

وعلى صعيد التأليف والنشر يُعتقد أن أخطر ما أتى به المستشرقون حتى الآن إصدار دائرة المعارف الإسلامية المترجمة إلى عدة لغات، والتي يعاد طبعها حديثاً، ومصدر الخطر هو التحريف في النصوص الدينية والأحداث التاريخية، التي توافقت مع رغبة المستشرقين وتصوراتهم الغربية، ونظراً لأهمية هذا المؤلف الموسوعة فقد عبأ كثير من هؤلاء المستشرقين أقلامهم، وجندوا أنفسهم في معرفة كيفية وضع السم في الدسم، كي يستسيغ القارئ الأخبار والنصوص المحرّفة، والأدهى في الأمر أن دائرة المعارف كانت ولا تزال حجة علمية ومرجعاً هاماً لكثير من الدارسين والمثقفين الذين تمكنوا من التسلل إلى داخل الصروح العلمية والأكاديمية، ولعب أدوار رئيسة

وواضحة في توجيه الثقافة والسياسة حسب مخططهم المرسوم، وأصابع الاتهام تشير إليهم من خلال المجمع اللغوي في مصر الذي كان من أعضائه "هاملتون جب، ورينولد نيكلسون، والمجمع العلمي في بغداد ودمشق الذي كان من أعضائه "كارول نالينو" الذي تحوم حوله أكثر من شبهة في مواقفه من الإسلام، هذا فضلاً عن المؤتمرات التي عقد أولها في باريس عام ١٧٨٣م، ودامت الحال على هذه الطريقة حتى وقت متأخر من القرن الحالي، حيث ظهر فشل هذه المؤتمرات واتضحت الخطط فتقرر إلقاء صفة الاستشراق وأعلن أن الاجتماعات القادمة ستكون تحت اسم مؤتمر العلوم الإنسانية[٢١].

وقد شجعت الولايات المتحدة الأمريكية في العصر الحديث الدراسات الاستشراقية، فوعت عام ١٩٤٧م الدراسات الاستشراقية في جامعة برنستون –أولى جامعاتها المهتمة بالدراسات العربية والحضارات السامية القديمة، وتبني المؤتمرات طرقاً أربعاً للنفاذ إلى أعماق ثقافة الشرق الأدنى والتأثير عليها، وهي الفن والآثار والأدب والعلم والدين، وبذلك تكون الدول الاستعمارية قد ضمنت السيطرة على مقدرات الأمم الضعيفة، واستطاعت عن طريق الانقسامات الداخلية تعزيز الروح الإقليمية والانعزالية، وصنع كيانات محلية هزيلة، وهذا ما حدث للدولة العثمانية عندما تكالبت الدول الكبرى عليها، بعد أن أحيت العصبيات الضيق، وخلّفت نزعات عرقية وجنسية بغية تعزيز الركائز الانفصالية –الوطنية والقومية التي تميزت حسب المخطط المرسوم– بقيم مستقلة ومتغايرة، فبعد إقالة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ١٩٠٩م، بسبب موقفه المبدئي المعارض للتفريط بأرض فلسطين العربية والإسلامية، استطاعت الماسونية والقوى الدولية المتآمرة القضاء على دولة مسلمة، بعد أن ملأت الدنيا صراخاً عن الحريات الضائعة في الدولة العثمانية، وأفرطت في الثناء على الحركات السرية والعلنية المتأوربة، قالت دائرة المعارف الماسونية إثر نجاح انقلاب "مصطفى كامل" وإلغائه الخلافة الإسلامية: "أليس هذا الإصلاح هو ما تبتغيه الماسونية في كل أمة ناهضة؟ فمن يمثل أتاتورك من رجالات الماسون سابقاً ولاحقاً[٢٢]؟ "وليس بمستغرب إطلاقاً أن يبارك معظم المستشرقين فعلته، وأن يقوم "أرنولد توينبي" بتأليف كتاب (الخلافة) ليسوّغ ما فعله أتاتورك ويدافع عن أعماله ظناً منه أن الإسلام دين عبادة، وليس منهج حياة ونظام مجتمع متكامل.

هدف الاستشراق في السياق التاريخي

إنّ دراسة قضية الدوافع والأهداف المبتغاة من وراء أبحاث المستشرقين لا تتم كاملة بمعزل عن التبصر بالبنية الفكرية والتركيبة النفسية، التاريخية التي صمّمَت عن وعي أو دون وعي، فلسفة هذه الأهداف واتجاه هذه المرامي لدى هذا الغرب الذي يطلق عليه الآن أوروبا المنصبة اهتماماتها على الشرق الإسلامي بالذات في تحليلها الاستشراقي[٢٣].

إنّ للاستشراق دوافع وأسباباً وأهدافاً يأتي في قمتها: الدافع الديني بألوانه المتعددة. ثم يأتي في المرتبة الثانية: الدوافع السياسية والاستعمارية والاقتصادية والتجارية، ولعل الدوافع والأهداف السامية الوحيدة هي الأسباب العلمية النزيهة التي لم يخل الاستشراق منها بأيّ حال، بل إن هذا الدافع يزداد مع ضمور الدوافع الأخرى، ثم تأتي في المرتبة الثالثة: البواعث النفسية والشخصية والخاصة والتاريخية والإيديولوجية غير الدينية كالمستشرقين الشيوعيين الذين تدفعهم إيديولوجيتهم إلى الاتجاه إلى الاستشراق[٢٤].

إذاً إن معظم المعطيات التي بين أيدينا –من أدبية وتاريخية وسياسية ودينية– تدين حركة الاستشراق وأهدافها المشبوهة، وتربطها بعجلة السياسة الغربية، التي لم تتردد يوماً عن استخدام مختلف الوسائل للوصول إلى غايتها الاستعمارية، ويمكن تلخيص أهداف حركة الاستشراق بنقطتين بارزتين:–

الأولى: التبعية للغرب، وخلق نوازع الاستسلام لقيمه المادية الحديثة –الاجتماعية منها والخلقية– وإظهاره كما هو عليه من طروح مبدئية، ونظريات عصرية، وكأنه شبكة خلاص للأجيال الناشئة من أوهامها القديمة وأدران القرون البالية التي مازال الشرق العربي والإسلامي يخضع لها من دون وعي ومعرفة.

الثانية: بث روح التخاذل الديني بين المسلمين والتشكيك بالتاريخ العربي وقيمته الاجتماعية، وذلك بإيجاد نواقض مختلفة، وافتعال أحداث وهمية وتأويلات خيالية. هذه الروح الهدامة وعاها "عمر فروخ" جيداً حين وصف حالة الاستشراق في بلادنا وغاياتهم: "بخلق تخاذل روحي في نفوس المسلمين، وحملهم على الرضى والخضوع للمدنية الغربية المادية"[٢٥]. التي تنكرت من جهة لمقومات أمتنا العربية والإسلامية –التاريخية والحضارية– في ماضيها الطويل والعريق، واستخفت من جهة أخرى باللغة العربية الفصحى، وشجعت اللغات المحكمية والعامية بهدف تقطيع

وحدة الشعب العربي، وهذا ما توخته حركة الاستشراق من جراء تغريب العقلية العربية، وترويج مناهجها التربوية والتعليمية، وإغراق المنطقة بفكرها المادي، لتمكين الاستعمار -الثقافي والسياسي- من أن يفرض طروحه المختلفة، ويتدخل في شئون البلاد الداخلية، وهذا ما جعل معظم الدارسين لحركة الاستشراق يؤكدون أن عمل هؤلاء قد انطوى على نزعتين رئيستين:-

الأولى: سيطرة الاستعمار الغربي وتمكينه من توجيه السياسة، حسب مصالحه ومنفعته الخاصة.

الثانية: تشويه مواقف العرب والمسلمين، وغرس شبهات حول مقدساتهم تحت غطاء البحث العلمي والغاية الإنسانية العامة.

تجلت النزعة الأولى في إضعاف المفاهيم العربية، وتأويل النصوص الدينية، ووضع شروح وتعليقات منافية للأعراف العربية والتعاليم الإسلامية، مما يؤدي فكرة الشك ويوهن الرابطة الدينية، ويؤدي إلى الانجرار وراء القيم الغربية.

فالمستشرق الفرنسي "آرنست رينان" (١٨٢٣- ١٨٩٢) يصور عقيدة التوحيد في الإسلام بأنها عقيدة تؤدي إلى حيرة المسلم[٢٦]، وأن الديانة الإسلامية بشرية المصدر، ومشوبة بتأثيرات المذاهب السامية الدينية السابقة، في حين يقر "رينان بربانية" المسيحية، أما المستشرق اليهودي "اجنتس جولد تسهير" (١٨٥٠- ١٩٢١) فقد ادعى استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه، وزعم في بحث ألقاه في المؤتمر الدولي للأديان، الذي انعقد في باريس ١٩٠٠م بعنوان: "الإسلام والدين الباريسي"، قائلاً: "كان لدين دولة الأكاسرة تأثير في الإسلام أيضاً في أول عهده، ورأى أن الأحاديث النبوية هي من صنع القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وليست من أقوال الرسول، مرتكزاً على روايات ساقطة"، أيده من بعده المستشرق الإنكليزي "نيكلسون" (١٨٨٥ - ١٩٤٥) الذي أكد بشرية القرآن معتبراً أن محمداً تأثر بتعاليم الديانات السابقة، وحرّف في نصوصها، وهذا ما جعل فقرات القرآن -على حد قوله-مضطربة. والقارئون للقرآن من الأوربيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه -وهو محمد- وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات[٢٧]. ويمجّد "نيكلسون" في مكان آخر، كغيره من المستشرقين فكرة التصوف الإسلامي في الحب الإلهي، ظناً منه أن يصرفهم عن الجهاد في سبيل الله، منتقداً في الوقت ذاته فكرة الإله، الذي يبسط رحمه

على من يتقون غضبه بالتوبة والخضوع، ويواصلون أعمال البر.. مؤكداً أنه إله خوف أكثر منه إله حب ..[٢٨].

وهكذا يتبين بوضوح أن هدف المستشرقين ليس إظهار الحقائق، وجلاء الأمور وكشف غوامضها، لأن ديدهم الحقُّ هو التشكيك والتقليل من قيمة الفقه الإسلامي وتشريعه، الذي يرده بعضهم إلى أصول الفقه الروماني، وكذلك الافتراء على الحضارة العربية، وانتقاد لغتها الفصحى، على اعتبار أنها غير قادرة على مواكبة لغة العصر، بأشكاله الجديدة، ومضامينه الحديثة، ونعت الأدب العربي بالفقر والجدب.

كل ذلك من أجل أن يبقى أدبهم مسلطاً علينا، وتبقى لغتنا عالة على مصطلحاتهم، يكيدون لنا ولحضارتنا وتراثنا، ويلعبون بشعوب المنطقة على هواهم، وحسب مصالحهم السياسية والاقتصادية.

المثقف العربي والاستشراق

تصدى كثير من مثقفي العربية الحديثة، لكتابات المستشرقين وعارضوا تصوراتهم، ونقضوا أراجيفهم، وكشفوا أخطار حركاتهم –السرية والعلنية– التي تعمل مع الاستعمار، وتتآمر على حرية الشعوب الناهضة واستقلالها الوطني، تحت أقنعة وهمية، وبأسماء مضللة أخرى.

ومن أبرز الاعتراضات التي وجهها أعلام النهضة للمستشرقين، ردّهم على من اتهم القانون الإسلامي بالقدمية والبلى والرجعية من جهة، وبالهمجية والوحشية من جهة أخرى، لوجود نصوص في قانون العقوبات الإسلامي، تدعو إلى قطع يد السارق، ورجم الزاني والزانية، وجلد الكافر، فبينوا أن هذا القانون في ظل الدولة الإسلامية، قد استظل بسلطتها نصف العالم، طيلة اثني عشر قرناً، مما يثبت أنه صالح لكل زمان ومكان، وأن العقوبة في الإسلام هي أرحم من قانون المجتمع الحديث وأفانين عذاباته التي تظهر في إبادة الجسم ونسفه بالأسلاك الكهربية، أو رمية بالقنابل المحرقة والمدمرة.

وعلى الرغم من ردود كتابنا على المقولات المشبوهة فإن فئة تعلمت في دُنى الاغتراب قد تأثرت بثقافتهم وطروحهم، واعتمدت الفكر الغربي الذي قام على النقل والمحاكاة والموالاة للمنهج الأوربي، فبرز اتجاهان حيال أفكار المستشرقين وأقوالهم اتجاه متغرب وكان على رأسه علي عبد

الـرازق في كـتاب "الإسـلام وأصـول الحكم" الصادر عام ١٩٢٥، واتجاه قاوم الانحرافات والادعاءات الملفقة، وقد مثله "الأفغاني"، "ومحمد عبده"، "ورشيد رضا".

والواقـع أن كُتّابنا المعارضين لاتجاه الاستشراق في ردهم "على عبد الرزاق"، يكونون قد ردوا عـلى جميع الذين جاءوا من بعده، وتَبَنّوا نظرياته، ونسجوا على منواله لأن كتابه تضمن معظم طروح المستشرقين المتعصبين، فعلى حين تكلم "على عبد الرازق" على العلمانية متأثراً طبعاً بنظرية أوروبـا الحديـثة- فصل الدين عن الدولة- فقد اعتبر أن الدين علاقة بين الشخص والخالق، وأن الإسلام دين لا دولة، وإن الأئمة المسلمين لم يعطوا أبحاثاً في أنظمة الحكم وأشكاله السياسية[٢٩].

مـتجاهلاً المصادر العديدة المختصة بهذا الشأن، ككتاب "السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية" لابن تيميه، الذي بحث في أسس الحكم والشروط السياسية لبناء دولة عادلة.

انتقد "محمد عبده" وغيره من إعلام النهضة نظرية المستشرقين المطالبين بفصل الدين عن الدولة، فأكد من خلال تضمين القرآن لكثير من الآيات التي تدعو إلى السلطة السياسية والقضائية والعدلية.. صلة الدين الإسلامي بالدولة، مبيناً أن أحد أصول الإسلام الأساس، الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، لكنه وهو العليم بحال سلطة السلطان الإلهي -ثيوقراتيك- عند الإفرنج الذي كان يسـتمد سـلطته من حق الطاعة على الناس، بمقتضى الإيمان[٣٠]، فقد ميّز السلطة الإسلامية عن ذلـك، وأشـار إلى طبيعة الحاكم -الخليفة- عندما تخلعه الأمة أو أهل الحل والعقد متى رأت فيه إعوجاجاً منتقداً مزاعم وترهات المستشرقين التي تظهر أن سلطة محمد ﷺ روحية، منشؤها الإيمان، بينما ولاية الحاكم ولاية مادية، فـ"الأفغاني" الذي انتُقد بقوة من قِبَل المستشرقين بسبب هجومه على الاستعمار الغربي، وإشادته بعزة الإسلام وقوته، دحض ما جاء في محاضرة المستشرق الفرنسي "آرنست رينان"، في السوربون أثناء إقامته -أي الأفغاني- في باريس بعنوان (الإسلام والعلم)، وقد تضمنت محاضرته نقطتين بارزتين:-

الأولى: أن الديانـة الإسلامية لا تشجع الجهود العلمية، بسبب كثرة المعتقدات الغيبية، والإيمان بالقضاء والقدر.

الثانـية: إن عقلـية الأمـة العربية لا تصلح لدراسة العلوم الفلسفية وعلوم ما وراء الطبيعة[٣١].

أظهر الأفغاني في رده ضبابية فكرة رينان الأولى، وجهله بالعرب والديانة الإسلامية التي كثرت فيها الآيات والأحاديث التي تحض على العلم وتدعو إلى المعرفة، فبين أن من أولى آيات القرآن آمرة بالقراءة، وأن كلمة العلم فيها وردت ثلاث مرات في "سورة العلق"، وكانت أحاديث الرسول ﷺ صريحة وواضحة في طلب العلم والترغيب فيه: "طلب العلم فريضة..، واطلبوا العلم ولو كان في الصين. والنظر في العلم ساعة خير من عبادة ستين سنة. ومجلس علم خير من صلاة ألف ركعة." كل ذلك يؤكد أن الإسلام خاطب العقل والقلب معاً، واحتوى على تأملات بالظواهر الطبيعية، وبسنن الخلق والاجتماع والكون .. التي هي من عمل رجال الفلك، والطب، والكيمياء، والنبات، وغيرها.. قال الله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾[٣٢]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣٣].

وأما النقطة الثانية، التي تكشف الحقد العنصري والديني عند "رينان وليون جوتيه" فقد انتقدها الأفغاني، وبيّن أن العرب أخذت عن اليونان والفرس علومهم وصقلتها وأضافت إليها من معارفها وسلامة ذوقها، في وقت كانت فيه بقية الشعوب الغربية القريبة من أماكن هذه الحضارة تغطّ في سباتها، ولم تفعل شيئاً، بدليل أن أوربة استقبلت أرسطو بعد أن تقمّص الصورة العربية[٣٤].

تأثر كثير من كتّابنا العرب بالفكر الاستشراقي، وروجوا للمعرفة العلمية والعقلية التي اعتبروها تتناقض مع المعرفة الدينية، وكان من جملة المتأثرين بهذا الفكر "طه حسين" الذي هزّ الثقة في القرآن، وفي كثير من أصول الدين وشئونه الدينية، وبخاصة في كتابه في الشعر والأدب، عندما شك في قصة "النبي إبراهيم وإسماعيل" واعتبر أن ورود الاسمين في القرآن غير كاف لإثبات وجودهما[٣٥]. وأن قريشاً مستعدة لقبول مثل هذه الأسطورة، وعندما وجه من قبل النيابة العامة بأقاويله أجاب بأنه يؤمن بما ورد بصفته مسلماً معتقداً، ولكنه لا يقرها بصفته عالماً وأديباً.

إذا كان معظم المستشرقين قد شوهوا التاريخ العربي والإسلامي، وحاولوا القضاء على قيمه وتراثه، فإن التاريخ نفسه ترك لنا أسماء عرفت بإنصافها واعتدالها على الرغم من الهنات التي وقعوا فيها في أكثر من جانب، وعلى مختلف الصعيد فإضافة إلى "ليوبولد فايس(محمد أسد) "وأرنولد توينبي"، "غوستاف لوبون" ونضم إليهم المستشرق "مونتجمري وات" الذي أيّد فكرة اختتام الديانات بالإسلام، معتبراً أنه الدين الوحيد الذي اشتمل على كل فضائل الأديان السابقة.

وتضمن اعترافاً مبدئياً بين العلم والعقل، وقد وجه "مونتجمري وات" انتقاداً لاذعاً لأوروبا التي بسبب تعصبها الديني، واعتمادها الكلي على القانون العلمي بقيت في دياجير القرون المظلمة، مظهراً عدم معرفة البشرية حضارة قبل الإسلام، ظناً منه أن الأمم المسيحية واليهودية عرفت ثقافة مسيحية وثقافية يهودية، هما حسب رأيه محدودتان في حين أن الحضارة الإسلامية شاملة.

وهكذا يجب أن لا تعمينا كتابات بعض المستشرقين المشبوهة، عن رؤية الإيجابيات المعرفية والحضارية لمستشرقين بحثوا عن المعرفة وجهدوا في أن تصبح هذه المعرفة ملكاً للبشرية كافة، ونعتقد أن الدور المطلوب حالياً من رجال الاستشراق، بعد أن أصبحت عملية التعارف بين الشرق والغرب ممكنة وسهلة، وهو دور يقوم على دراسة العلوم الاجتماعية والإنسانية، والأخذ بمنجزات العصر الحديث ومكتشفاته، والانفتاح بإخلاص وموضوعية على منجزات الشرق العربي وحضارته الإسلامية العريقة.

الهوامش:

١) أحمد طالب الإبراهيمي، حوار الحضارات، مقال منشور في كتاب العربي (الإسلام والغرب)، الكويت يوليو ٢٠٠٢، ص١١٥.

٢) عدنان وزان: الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر، ١٩٨٤، ص١٥.

٣) عمر فروخ: الاستشراق في نطاق العلم والسياسة في كتاب (الإسلام والمستشرقون) دار المعرفة، ١٩٨٥: انظر كذلك إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة: كمال ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨، ص١٠١.

٤) نقلاً عن محمد مغلي: مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، مركز الفيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ٢٠٠٢، ص٣٩.

٥) على إبراهيم النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية، مركز الفيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ١٩٣٣، ص١٣-١٤.

٦) انظر السامرائي: الاستشراق بين الموضعية والانتمائية، ص١٩- ٢٠.

٧) على النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية، ص٢٣٢.

٨) إدوارد سعيد: الاستشراق، ص١٩.

٩) نجيب الكيلاني: الإسلامية والقوى المضادة، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠، ص١٣٤.

١٠)أنظر جلال العالم: دمروا، أبيدوا أهله، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٤، ص٣٣.

١١)مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩، ص١١٨.

١٢)عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ج١، مطبعة الرسالة، عابدين، ١٩٩٤،ص٣٧٢.

١٣)أنور الجندي: الإسلام والحضارة، المكتبة العصرية، بيروت، ص٢١٤.

١٤)مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقين، المكتب الإسلامي –بيروت– ١٩٧٩، ص٥٧.

١٥)أنظر صلاح الدين الأيوبي: الإسلام والتميز العنصري، دار الأندلس، بيروت ١٩٧٢، ص٢١٠.

١٦)مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار، ص٣٤.

١٧)هشام جعيط: أوربا والإسلام، دار الحقيقة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٣٢.

١٨)إسماعيل الكيلاني: فصل الدين عن الدولة، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٠، ص١٢٥.

١٩)أنظر إدوارد سعيد: الاستشراق، ص٧٤.

٢٠)أنظر أنور الجندي: إطار إسلامي للفكر المعاصر، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٠، ص١٦.

٢١)المرجع السابق، ص١٧.

٢٢)إسماعيل الكيلاني، فصل الدين عن الدولة، ص١٩٥.

٢٣)محمد مغلي: مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، مركز الفيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ٢٠٠٢، ص٥٣.

٢٤)أنظر على النملة: الاستشراق في الأدبيات العربية، ص٤٠.

٢٥) إسماعيل الكيلاني، فصل الدين عن الدولة، ص١٣٢.

٢٦)محمد البهي: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي –مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٥، ص٤٩.

٢٧)المرجع السابق، ص١٩٠.

٢٨)المرجع السابق، ص١٩٤.

٢٩)على عبد الرازق: الإسلام وأصول الحكمة، القاهرة، ص١٢٣.

٣٠)محمد عبده، الأعمال الكاملة –تقديم محمد عمار، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٧٤، ص١٢٥.

٣١)جمال الدين الأفغاني: الكتابات السياسية، ج٢، دراسة وتطبيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص٣٢٢.

٣٢) سورة يونس آية ١٠١.

٣٣)سورة العنكبوت آية ٢٠.

٣٤)جمال الدين الأفغاني: الكتابات السياسية، ص٣٢٣.

٣٥)طه حسين: في الأدب الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢٦.